خطبة صلاة الجمعة 17/12/2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الرحمة عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار: «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة الحادية عشرة في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلّى بها).

وعنوان خطبة اليوم:

الرحمة عند النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف نتحلى به.

أيها الإخوة:

سبق أنّ الخُلق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خلُق حسن فليحمد الله، ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

الرحمةُ: رقة تعتري القلب تدعو صاحبها إلى مشاركة الآخرين مسراتِهم وآلامَهم، ومن مظاهرها بر الوالدين رحمة بهم ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، ورعاية الأبناء رحمة بهم «**يا عبد الرحمن إنها رحمة**» وصلة الرحم رحمة بها «**الرحم من الرحمة**» وإكرام اليتيم رحمة به «**من لا يرحم لا يرحم**» والإحسان إلى الضعيف رحمة به «**من رحم الضعيف نشر الله عليه رحمته**» ونحو ذلك، وقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم رحمة «**إنما بعثت رحمة**» وجاء بالدين للناس رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] وتعامل مع الخلق برحمة «**إنما أنا رحمة مهداة**»، وعلم أصحابه أن يكونوا رحماء «**ارحموا من في الأرض يرحمْكم من في السماء**».

وإذا كان حديث اليوم عن الرحمة عند النبي صلى الله عليه وسلم وكيف نتحلى به، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة.

1-أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إبراهيم مُسْتَرْضَعاً في عوالي المدينة، وكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه لَيُدَّخَن وكان ظِئرُه قَيْناً – أي حدادا- فيأخذه فيقبله، ثم يرجع، قال عمرو: فلمّا تُوفِّيَ إبراهيم، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ إبراهيم ابني، وإنه مات في الثَّدي- أي في سن رضاع الثدي-، وإنه له لظِئرين تكمِّلان رضاعه في الجنة».

هذه صورة من صور رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعيال وشفقته عليهم.

2- وأخرج الإمام أبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: قال: «أَردَفني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَلْفَهُ ذاتَ يومٍ...، فدخل حائطاً لرَجُلٍ من الأنصار، فَإِذَا فيه جَمَلٌ، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ، وذَرَفَتْ عَيناهُ، فأتَاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فمسحَ ذِفرَاهُ – أي موضع الأذنين من الرأس-، فسكتَ، فقال: مَنْ رَبُّ هذا الجملِ؟ لِمَن هذا الجَملُ؟ فجاءَ فَتى مِن الأنصارِ،

فقال: لي يا رسول الله، فقال له: أَفلا تتَّقي اللهَ في هذه البَهيمةِ التي مَلَّكَكَ اللهُ إيَّاها، فَإِنَّهُ شَكا إِليَّ: أَنَّكَ تُجِيعُهُ وتُدْئِبُهُ – أي تتعبه–».

هذه صورة من صور رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحيوان لكيلا يجيعه أحد ولا يتعبه بكثرة العمل عليه.

3- وأخرج البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء- قال عكرمة: أراه قال في دم يعني دية- فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، ثم قال: «**أحسنتُ إليك؟**» قال الأعرابي: لا، ولا أَجْمَلْتَ!! فغضب بعض المسلمين، وهمّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن كفّوا، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت، وزاده شيئاً، وقال: «**أأحسنتُ إليك؟**» فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنك قلت ما قلت وفي نفسي أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك**» قال: نعم، فلما كان الغد أو العشية جاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك**» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا!! فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن مَثَلي ومثلَ هذا الأعرابي كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتّبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض ودعاها، حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار**».

فهذه صورة من صور رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالجاهلين.

والحاصل أنّ الرحمة خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو معروف بها، والمتوقع أن تكون الرحمة وصفَك، وأن تكون معروفاً بها.

تخرج والدتهم الموظفة والتي فقدت زوجها من سنين من بيتها عند السابعة والنصف صباحاً، وتعود عند الثالثة والنصف لتبدأ بتجهيز الغداء حتى إذا ما اجتمعت العائلة أطعمتهم وسامرتهم ثم بدأت أعمالها المنزلية والمتابعة الدراسية لأولادها، وتكاد لا تنام كل يوم إلا ساعات قليلة؛ لتقوم لعبادتها قبل الفجر وحتى طلوع الشمس، وهكذا تفعل في كل يوم.

الغريب أنّ واحداً من أبناء هذه الأم المجاهدة يطالبها باستمرار بزيادة عطائها وزيادة اعتنائها وزيادة بذلها له، وهو عاطل عن العمل، ولا يرحم سنَّها ولا جهدها.

الرحمة رقة تعتري القلب تدعو صاحبها إلى مشاركة الآخرين مسراتِهم وآلامَهم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

سافر أخوهم الكبير للعمل في بلد بعيد، ويرسل لهم كل شهر ما يكفيهم ويزيد، ومع أنه ذو زوج وعيال، فلا يزال إخوته يطالبونه بالمزيد ويستعطفون أباهم ليضغط عليه ليزيدهم من عطائه، فيفعل الأخير، معتقدين أنه يجني المال جنياً ويحصده حصداً، ولا يرحمون غربته ولا كثرة نفقاته.

الرحمة رقة تعتري القلب تدعو صاحبها إلى مشاركة الآخرين مسراتِهم وآلامَهم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

تحدد إدارة امتحانات الدراسات العليا في الجامعة تاريخاً ينتهي فيه تسليم الطلاب لحلقات بحثهم ليصار إلى تصحيحها وترشيح الناجحين من الطلاب فيها لدخول الامتحان النظري، وبسبب ولادةِ زوجته في هذا الشهر وإخراجِ المستأجرِ له من البيت وانتقاله إلى بيت جديد وظروفِ البلد الصعبة تأخر أحد الطلاب في تسليم حلقة البحث، فراح يستمهل عميدة الكلية يومين لينهي حلقته ويسلمها للإدارة، فلما علمت العميدة بحاله ووجدت إمكانية التأخير، وحتى لا تظلم أحداً أعلمت جميع الطلاب عن تمديد فترة استلام حلقات البحث أسبوعاً إضافياً.

الرحمة رقة تعتري القلب تدعو صاحبها إلى مشاركة الآخرين مسراتِهم وآلامَهم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

أيها الإخوة:

أهم ما في الخطبة أن يعرف المرء كيف يتحلى بالرحمة، وإليكم أربعةَ أمور تساعد في ذلك:

1- **الإكثار من ذكر الله:** إذ الذكر يرقق القلب والغفلة تقسّيه، وما الرحمة إلا رقة تعتري القلب كما سمعتم.

2- **التدرب على أعمال الرحمة وترك أضدادها:** فلا يزال العبد يتعاطى أسباب الرحمة وأعمالها، ويجتهد في التحقق به، ويهجر أضدادها حتى يمتلئ قلبه رحمة وشفقة.

فمن تكلف مساعدة الضعيف وعون العاجز ومواساة المصاب وتهنئة المسرور ونصرةِ المظلوم وتعليمِ الجاهل ونحوِ ذلك، وهي أعمال الرحمة وترك عقوق الوالدين وظلم الناس وإيذاء الجار وقهر الضعيف وازدراء الفقير ونحوِ ذلك، وهي الأضداد، من مارس أعمال الرحمة وترك أضدادها رق قلبه ولان طبعه وصار رحيماً.

3- **ترك الاستغراق في الشهوات والملذات:** إذ كثرة الضحك تميت القلب، وكثرة الكلام والمنام تقسي القلب، وإدخال الطعام على الطعام يضعف القلب، والتوسط في كل ذلك والتخفف منه ينشط القلب ويقوي الروح فتستقر فيه الرحمة.

4- **صحبة الرحماء وهجر القساة:** لأن الصاحب يعدي.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنّه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين